المحاضرة التاسعة

النماذج البشرية

تقديم:

يعتبر موضوع " النماذج البشرية" من بين أكثر المواضيع اهتماما من طرف الدارس المقارن، ويعود ذلك إلى التفريعات التي تحدث أثناء الدراسة المقارنة، والتي تستدعي تتبع كلّ نموذج عبر انتقاله من حالته الأولى إلى الحالة الأدبية والفنية، أو انتقاله من قومية نحو قوميات أخرى عبر عملية تأثير قد تجعله نموذجا عالميا و إذا ما "تعقبنا معظم هذا التأثير والتأثر في العمليات الإبداعية في آداب العالم، نجد أن أغلب ما أدى إليه هو توظيف العديد من المبدعين في شتى أصقاع العالم، ومن مختلف القوميات في أعمالهم الإبداعية لما يصطلح عليه في مفهوم الأدب المقارن به :النماذج البشرية، هذا التوظيف الذي يعد من أخصب العمليات الإبداعية التي أدت وما زالت تؤدي دورا مهما في عملية التبادلات الأدبية بين مختلف الآداب القومية والعالمية"[1]

منه قد " يقوم الكاتب بتصوير نموذج الإنسان تتمثل فيه مجموعة من الفضائل أو الرذائل، أو من العواطف المختلفة التي كانت من قبل في عالم الجريد، ولا يهتم الأدب المقارن بهذه النماذج إلاّ إذا صارت عالمية وكان تأثيرها واسعا، وتتوزع هذه النماذج إلى عدة أنواع منها ما يكون إنسانيا أو أسطوريا أو دينيا أو غيرها"[2]

[1]- محمد بكادي :أثر توظيف النماذج البشرية في حركة التواصل بين الأدب العربي، ومختلف الآداب العالمية، مجلة إشكالات في اللغة والأدب، المركز الجامعي لتامنغاست، الجزائر، مج 8، ع1، 2019، ص 11

[2]- محمد غنيمي هلال، الأدب المقارن، مرجع سابق، ص 224، بتصرف.

منه يشترط الدرس المقارن أن تتصف هذه النماذج بصفة العالمية ويتجاوز تأثيرها حدود القومية التي أنتجته لتصبح من مجال اهتمام الدراسات المقارنة، ويمكن للدارس أن يحدد ببساطة معظم هذه النماذج والتي نقسمها هنا في محاضرتنا هذه إلى:

1. النماذج الإنسانية العامة:

لعلّ المقصود بالنموذج الإنساني العام ذلك النموذج المستوحى من طبائع الانسان العامة، كالحزن والفرح والكرم والبخل، وغيرها، والتي تتحوّل إلى صفة ملفتة أو آفة اجتماعية بارزة، تجذب الكتّاب والشعراء فتتحوّل إلى نموذج للكتابة، ويمكن القول أنّ ما يجعلها نماذج عالمية هو التصاقها بالصفات الإنسانية، ويمكن إدراج هنا نموذج " البخيل" بوصفها من بين أهم وأكثر النماذج استهلاكا من الناحية الأدبية في العالم.

نموذج البخيل:

تعتبر صفة البخل من بين أسوأ الصفات الإنسانية، والتي تجعل صاحبها من بين أكثر البشر كرها، وأكثرهم سخرية من طرف الآخرين، فهي صفة ينبذها المجتمع ويحاربها بقوة، ولقد اهتم كبار الكتّاب بهذه الظاهرة الاجتماعية، فنجد " تأثر موليير في مسرحيته " البخيل" وفيها صور موليير "أرباجون" كنموذج انساني للبخل وقد ظهرت هذه الرذيلة الاجتماعية في صورها المختلفة الهدامة في علاقة البخيل بأولاده ونظرته إلى المجتمع، وقد ارتحل هذا النموذج حول العالم وهو ما نجده عند الشاعر الإيطالي "كارلو جولدوني"[1]

وقد خاض الكثير من الأدباء والشعراء في التعبير عن هذه الظاهرة الإنسانية، حتى أضحت نموذجا يستهوي جلّ الثقافات في العالم، فكانت تصوره بصورة مريعة تارة، وتارة أخرى تصوره بصورة فكاهية.

2. الأساطير القديمة:

[1]- محمد غنيمي هلال، الأدب المقارن، مرجع سابق، ص 224، بتصرف.

تعجّ الثقافة البشرية بعنصر الأسطورة بمختلف أشكالها، فقد صنعت بدائل لمعتقداتها وتفكيرها عن كلّ موضوع يفوق قدراتها الفكرية، مانحة لها ذلك البعد الخارق، لتتشكل في نماذج متعددة تتراوح بين الآلهة وأنصاف الآلهة، مرورا بالوحوش الأسطورية والحيوانات الخرافية، لتصبح الأسطورة ذلك العنصر الخرافي الذي يتعدى الواقع والتفكير الإنساني.

بيجماليون:

يعتبر الفكر الميثي اليوناني من بين أرقى النماذج تطوّرا وتعقيدا، ولعلّ ارتباط اليونان بالفلسفة قد ساهم في تطوير الفكر العقائدي، خاصة مع أفكار أفلاطون حول العوالم كعالم المثل والعالم الحسيّ، الأمر الذي ربط تفكير الفرد اليوناني بمعتقداته خاصة تعدد الآلهة وأنصاف الآلهة، ما صنع عدّة نماذج أسطورية، "ومن أهم النماذج البشرية التي ظهرت في بعض الأساطير القديمة وتحولت إلى رمز فلسفي أو اجتماعي، أسطورة" بيغماليون "وهي أسطورة ترمز إلى هيام الفنان بما يصنع"[1].

وتعتبر من أرقى النماذج الأسطورية رمزية، وتشير إلى "فنان من قبرص هام بجمال تمثال من صنعه ودعا " أفروديت" أن يتزوج من امرأة تشبه التمثال، ففعلت أكثر من ذلك، إذ وهبت التمثال نفسه الحياة عقابا له على إعراضه عن الزواج، ويرمز بذلك إلى هيام الفنان بخلقه الفنيّ"[2]

وتظهر هنا الأبعاد الأسطورية عبر القدرات التي تحوزها الآلهة مثل " أفروديت" إلهة الحب والجمال والخصوبة في الأساطير اليونانية، والتي حوّلت التمثال إلى بشرية عقابا لبيجماليون، "

---

[1]- محمد بكاد، أثر توظيف النماذج البشرية في حركة التواصل بين الأدب العربي، ومختلف الآداب العالمية، ص 12، 13.

[2]- محمد غنيمي هلال، الأدب المقارن، مرجع سابق، ص 245.

وقد تناولها شعراء وكتّاب من مختلف الآداب، وخاصة من الانجليز منذ الشاعر " جون مارينون" في قصيدته " نفخ الروح في صورة بيجماليون""[1].

ويتوجب هنا على الدارس أن يدرك اهتمام الأوروبيين بالآداب والثقافة اليونانية القديمة إيمانا منهم بتطورها وقسمتها الفنية الكبيرة، وقد نادى معظم الدارسين عبر العصور بالعودة إلى هذا الإرث ومحاولة إحيائه، وأدى هذا الاهتمام إلى نشرها عبر أوروبا وبعدها عبر العالم أجمع.

ولم يقف تأثيرها على الثقافة الغربية، بل تعدت الحدود نحو الثقافات الشرقية كالثقافة العربية وغيرها، " وقد تأثر الأستاذ توفيق الحكيم بالأسطورة اليونانية (...)، ففي مسرحية " بيجماليون" يجعل الصراع يدور بين المثال الفنيّ في نظر الفنان المعتد بخلقه وبين واقع الحياة"[2]

ورغم تهذيب توفيق الحكيم لهذه الأسطورة ومحاولة إزالة الجوانب القدسية منها لتلائم الثقافة العربية الإسلامية، إلاّ أنّ معاني الأسطورة ومغازيها قد وظفها بطريقة فنيّة بديعة معلنا بهذا تأثره بالأسطورة، ومؤكدا انتقالها إلى الثقافة العربية.

3. المصدر الديني:

لا يمكن تصوّر خلوّ الأدب من الجانب الديني، فهذا الأخير مكوّن أساسي من مكوّنات ثقافات العالم، إذ لا تخلو ثقافة ما أو أدب أمة ما من هذا المكوّن، بوصفه معادل موضوعي يستدعيه الكاتب لممارسة رقابة أخلاقية على شخصياته، فلا تخلو شخصية من هذا العنصر سواء بطريقة إيجابية أو سلبية.

شخصيتي يوسف وزليخا:

---

[1]- المرجع نفسه، ن ص

[2]- محمد غنيمي هلال، الأدب المقارن، مرجع سابق، ص 246.

لقد وظّف العديد من المؤلفين القصص الديني في أعمالهم لما لها من مواعظ تكشف عن خبايا شخصية، وتعالج أسمى الحالات النفسية البشرية، ومن بين القصص الأكثر تداولا أدبيا قصة النبي يوسف عليه السلام، وهي القصة التي قال عنها الله عزّ وجّل[***نحن نقصّ عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين***] سورة يوسف الآية 3.

إذا فهي " المأخوذة عن الكتب المقدسة وغالبا ما يبعد الكتاب والشعراء قليلا أو كثيرا من مصادرها(...)، ومنها شخصية " يوسف" وشخصية " زليخا" في الأدب الفارسي كما أخذتا من القرآن، ثم عن التوراة وشروحها، وقد صور هاتين الشخصيتين في الأدب الفارسي شاعران، هما " الفردوسي" و" عبدالرحمن الحامي" وقد بعدت هاتان الشخصيتان قليلا عمّا نعرفه من القرآن"[1]

منه قد لا يقيّد الكاتب بمعالم الشخصية من مصادرها، فيضيف أشياء أو ينقص منها، ولعلّ النسخة الفارسية الأدبية قد غيّرت من ملامح هاتان الشخصيتين مانحة لهما أبعادا أخرى تتماشى مع رؤيتهم الأدبية والفنيّة، لكن يبقى أصلهما هو النص الديني خاصة القرآن الكريم.

و " لقد كان أبو القاسم الفردوسي صاحب أوّل منظومة حول قصة يوسف وزليخا تصل إلينا، يذكر بعض مؤرخي الأدب الفارسي أنّ الفردوسي نظم هذه القصة بعد أن أكمل الشهنامة وأنّها كانت بالنسبة له عملا من أعمال التقوى، أراد به أن يكفّر عن ذنبه بقضاء عمره في نظم سير ملوك الفرس الأقدمين، وفيها الكثير من الكذب والمغالاة"[2]

وتبقى أهداف الكتابة عن الشخصيات الدينية تختلف من ثقافة إلى أخرى، لكن المتفق عليه أنّ هاتان الشخصيتان من الشخصيات الدينية الأكثر تداولا في الثقافات العالمية، وتبقى قصتهما منبعا أخلاقيا يحتذى به.

---

[1]- محمد غنيمي هلال، الأدب المقارن، مرجع سابق، ص 249.

[2]- محمد عبد السلام كفافي، في الأدب المقارن، دراسات في نظرية الأدب والشعر القصصي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، دط، 1972، ص365.

شخصية الشيطان:

تعتبر شخصية الشيطان من الشخصيات الدينية أيضا الأكثر توظيفا في الآداب العالمية، فرمزيته المناقضة للبشر، بوصفه منبع الشرّ المطلق، وسبب طرد الله لآدم وحواء من الجنّة، وسبب الصراعات في العالم، وقد تمّ توظيفه بطريقة مباشرة أو عن طريق الترميز له بصفاته وكذا عبر صراع الانسان بين (الخير والشر)، " وقد ابتعدت هذه الشخصية كثيرا عن مصدرها الديني، حيث انتقلت إلى ميدان الأدب وبخاصة على يد الرومانتكيين(...)، والأوّل في هذا الباب هو الشاعر الإنجليزي" ملتن" في " الفردوس المفقود"(...)، والذي يصوره في صورة المتمرد الذي طرد قهرا من عالم الخير ، فدفعه اليأس إلى الإدمان على الشر"[1]

ويميل " ملتن" إلى الانطلاق من أصل الشيطان الخيّر، كما يبيّن في عمله هذا محاولات الشيطان الانتقام من الأخيار، ومحاولته جذبهم نحو الشر، ويبقى عمله هذا مرجعا لمعظم الكتّاب والفنانين آخرها تحويله إلى فيلم سنيمائي.

وقد تم توظيف شخصية " الشيطان" في كلّ الثقافات تقريبا ولم تقتصر فقط على الثقافة الغربية، ونجد الكثير من المؤلفين العرب الذين خاضوا في توظيفه، إذ " قدم يوسف وهبي مسرحية " الشيطان" ثم فيلم " سفير جهنم"، وظهر أخيرا فيلم " المرأة التي غلبت الشيطان""[2] بهذا أثرت هذه الشخصية الدينية بطريقة ما على شتى الثقافات، لتصبح رمزا للشر وللصراع والخداع.

4. الأساطير الشعبية:

---

[1]- محمد غنيمي هلال، الأدب المقارن، مرجع سابق، ص 250.

[2]- أحمد شوقي عبد الجواد رضوان، مدخل إلى الدرس الأدبي المقارن، دار العلوم العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 1990، ص 144.

يحدث أن تتحول شخصية من عامة الناس إلى أسطورة شعبية ، خاصة إذا كانت تتصف بمواصفات مخالفة قليلا أو كثيرا عن باقي الناس، فلكم وصلتنا قصص شعبية خارقة عن شخصيات تمتلك قدرات أو أوصاف مثيرة تتناقلها الألسن، والمعلوم في الثقافة الشعبية ذات البعد الشفوي تتغير ملامح القصة في عملية انتقال شفوية، إمّا زيادة أو نقصان، وتعتبر قصة " الدكتور فاوست" من بين الأساطير الشعبية الأكثر تداولا بين الناس، وبين الكتّاب.

فاوست:

كما أسلفنا تعتبر هذه الشخصية الشعبية من بين أهم الشخصيات الشعبية التي اهتم بها الأدب، فقد " ألفت القرون الوسطى تلك الشخصية: شخصية الرجل يهب إبليس روحه على أن يكشف له عمّا يجهل من سر وأن يمكنه مما تصبو إليه نفسه من لذّة فينال من الحياة ما يعزّ على عامة الناس(...)، لقد عاش بالفعل في القرن السادس عشر "دكتور" اسمه فوست اجتمعت إليه كل خصائص السحرة التي تحدثنا عنها آداب القرون الوسطى(...)، ولم يجد سبيلا إلى تحقيق هذا الحلم غير الاتفاق مع الشيطان على أن يهبه روحه عند الموت"[1]

خاض الكثير من الأدباء في قصة (فاوست)، ولعلّ من بين الأعمال التي روّجت للأسطورة وجعلها عالمية ما قام به (فان غوته) والذي وسع من الأسطورة وأغناها بالعديد من الأبعاد الفلسفية والإنسانية، ومن خلال كتابه انطلقت آثار كثيرة في مختلف البلدان وفي عدة فنون كالموسيقى والمسرح والشعر وغيرها[2]

بهذا أصبح فاوست نموذجا للشخص الذي يبيع روحه للشيطان، لتتحوّل هذه الشخصية إلى نموذج عالمي يستهوي الأدباء والفنانين.

5. الشخصيات التاريخية:

[1]- محمد مندور ، نماذج بشرية، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، طبعة منقحة ومزيدة، 1997، ص ص، 33، 34.

[2]- جبور عبد النور، المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط2، 1984، ص 346، 347

يعجّ التاريخ البشري بالكثير من الشخصيات التي تركت بصمتها في صفحات التاريخ، وجعلت من قصتها تلج إلى معظم ثقافات العالم، مؤثرة بذلك في موضوعات هذه الآداب، وربما يتفق المؤرخون والأدباء أنّ هذا النّوع من الشخصيات ينتمي بالضرورة إلى الطبقة الحاكمة، إذ يلعب وزنها السياسي في الإبقاء على استمرارية صورتها في التداول بين النّاس ناهيك عن ارتبط بواقعة تاريخية مهمّة.

كليوباترا:

لقد تركت شخصية " كليوباترا" أثرا كبيرا سواء في بعدها التاريخي، أو في بعدها الأدبي والفنيّ، والتي استلهمت الكثير من الباحثين والأدباء بقوة شخصيتها وإدارتها السياسية الذكية في ظل الصراعات والأخطار التي كانت تحيط بمصر في فترة حكمها.

منه فإنّ "من الشخصيات التاريخية التي لقيت حظا فريدا في الأدب شخصية كليوباترا، فقد اهتم بها الكتّاب والشعراء منذ العصور القديمة، وجعلوا منها مادة خصبة لأفكارهم وخيالهم وذلك أنّها عاشت في فترة خطيرة(...)، فكانت كليوباترا ممثلة للقوة وسحر الاغراء، والخدعة(...)، وأوّل مسرحية فرنسية في عصر النهضة كان موضوعها " كليوباترا" ألفها الشاعر جودل (1566) تقريبا، وبعدها ألف صمويل دانييل الإنجليزي مسرحية كليوباترا (1594)، وقد صارت الشخصية عالمية في الأدب بعد أن تناولها شكسبير في مسرحيته (أنطوان وكليوباترا)"[1]

ختاما، تفتح هذه النماذج باختلاف أنواعها، وتعدد جنسيتها وأجناسيتها مجالا دراسيا خصبا للدراسات المقارنة، يسمح بتتبع تأثير هذه النماذج البشرية في شتى ثقافات وآداب العالم أجمع رغم اختلافها، إلاّ أن الأدباء استطاعوا تطويعها خدمة للأدب والثقافة المحلية.

[1]- محمد غنيمي هلال، الأدب المقارن، مرجع سابق، ص 256، 257، بتصرف.